

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ①

تفسير

القرآن الكريم

الحجرات ، ق ، الذاريات ، الطور
النجم ، القمر ، الرحمن ، الواقعة ، الحديد

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار الثريا للنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المملكة العربية السعودية

عنيزة - ص ب ١٩٢٩

هاتف: ٠٦/٣٦٤٢١٠٧ - ٠٦/٣٦٤٢٠٠٩

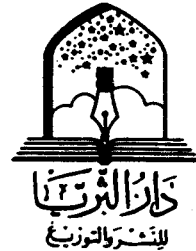
www.binothameen.com

info@binothameen.com

دار الثريا للنشر والتوزيع

فاكس ٤٠٢٢٦١٥ ص.ب ٩٤٣٨ الرياض ١١٤١٣

بريد الكتروني darthurayya@hotmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن من توفيق الله - سبحانه وتعالى - أن يسرّ لفضيلة شيخنا - تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه - ضمن لقاءات الباب المفتوح تفسير سور: الحجرات، وق، والذاريات، والطور، والنجم، والقمر، والرحمن، والواقعة، والحديد.

وقد عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى فضيلة الشيخ فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، أثابه الله، بالعمل لإعداد هذا الكتاب للنشر، فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تفسير سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد .
فإننا نبدأ بتفسير سور المفصل التي تبتدىء من سورة (ق) عند بعض العلماء، أو من سورة الحجرات عند آخرين .

وستكلم على سورة الحجرات لما فيها من الآداب العظيمة النافعة التي ابتدأها الله بقوله تبارك وتعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . اعلم أن الله تعالى إذا ابتدأ الخطاب بقوله : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإنه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إما خير تؤمر به ، وإما شر تنهى عنه ، فأرعه سمعك ، واستمع إليه لما فيه من الخير ، وإذا صدر الله الخطاب بـ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ دل ذلك على أن التزام ما خوطب به من مقتضيات الإيمان ، وأن مخالفته نقص في الإيمان ، يقول الله عز وجل : ﴿لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قيل : معنى ﴿لَا نُقَدِّمُوا﴾ أي : لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله ، والمراد : لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ أو بفعل . وقيل : المعنى لا تقدموا شيئاً بين يدي الله ورسوله . وكلاهما يصبان في مصب واحد ، والمعنى : لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ ولا فعلٍ ، وقد وقع لذلك أمثلة ، فمن ذلك قول النبي ﷺ : « لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين »^(١) لأن الذي

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب لا يتقدم من رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٩١٤)=

يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين كأنه تقدم بين يدي الله ورسوله ، فبدأ بالصوم قبل أن يحين وقته ، ولهذا قال عمار بن ياسر رضي الله عنهما : « من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم رضي الله عنه »^(١) . ومن التقدّم بين يدي الله ورسوله البدع بجميع أنواعها ، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله ؛ بل هي أشدّ التقدم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، وإياكم ومحدثات الأمور » . وأخبر بأن « كل بدعة ضلالة »^(٢) . وصدق - عليه الصلاة والسلام - فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات ، مما يدعي أنه شرع ، كأنه يقول : إن الشريعة لم تكمل ، وأنهكملها بما أتى به من البدعة ، وهذا معارض تماماً لقوله تعالى : ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ . فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع : أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال : نعم ، فإن قوله هذا يتضمن أو يستلزم تكذيب قوله تعالى : ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ، وإن قال : ليس كمالاً في الدين ، قلنا : إذن هو نقص ؛ لأن الله يقول : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله ، وأنه ناقص ، وأن هذا المبتدع كمله بما

= ومسلم ، كتاب الصيام ، باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٠٨٢) .

(١) أخرجه البخاري معلقاً ، كتاب الصوم ، باب قول النبي صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم الهلال فصوموا ، وإذا رأيتموه فافطروا » .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) وابن ماجه ، المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٢) . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

ادعى أنه من شريعة الله - عز وجل - فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولم يبالوا بهذا النهي حتى وإن حسن قصدهم؛ فإن فعلهم ضلالة، وقد يُثاب على حسن قصده، ولكنه يؤزر على سوء فعله، ولهذا يجب على كل مبتدع علم أنه على بدعة أن يتوب منها، ويرجع إلى الله - عز وجل - ويلتزم سنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، والبدعة أنواع كثيرة: بدع في العقيدة، وبدع في الأقوال، وبدع في الأفعال.

أما البدع في العقيدة، فإنها تدور على شيئين:

إما تمثيل، وإما تعطيل. فالتمثيل أن يثبت لله تعالى الصفات، لكن على وجه المماثلة، فإن هذا بدعة؛ لأنه لم يكن من طريق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وخلفائه الراشدين، فيكون بدعة، فمثلاً يثبت أن لله وجهاً ويجعله مماثلاً لأوجه المخلوقين، أو أن لله يداً ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين، وهلم جرا، فهؤلاء مبتدعة بلا شك، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. ولقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه، فإن كان إنكار جحد وتكذيب، فهو كفر، وإن كان إنكار تأويل فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب، فمثلاً إذا قال إنسان: إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ والمراد باليدين النعمة نعمة

الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، فهذا تحريف؛ لأن النعمة ليست واحدة، ولا ألف ولا ملايين، ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع، فيكون هذا تحريفاً وبدعة، لأنه على خلاف ما تلقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، والأئمة الهداة من بعدهم.

أما البدعة في الأقوال: فمثل أولئك الذين يبتدعون تسييحات أو تهليلات أو تكبيرات، لم ترد بها السنة، أو يبتدعون أدعية لم ترد بها السنة، وليست من الأدعية المباحة.

وأما بدع الأفعال: فمثل الذين يصفقون عند الذكر، أو يهزون رؤوسهم عند التلاوة تعبدًا، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسحون بحجرة النبي ﷺ، حجرة قبره الشريف، وكذلك الذين يتمسحون بالمنبر الذي يقال إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العقدية والقولية والفعلية، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية لله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والنبي - عليه الصلاة والسلام - يقول: «إياكم ومحدثات الأمور».

ومن البدع ما يُصنع في رجب، كصلاة الرغائب التي تُصلى ليلة أول جمعة من شهر رجب، وهي صلاة ألف ركعة يتعبدون لله بذلك، وهذا بدعة لا تزيدهم من الله إلا بعداً؛ لأن كل من تقرّب

إلى الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم، لا يقبل الله منه تعبده، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١). ومن التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله أن يقول الإنسان قولاً يُحكم به بين عباد الله أو في عباد الله، وليس من شريعة الله، مثل أن يقول: هذا حرام، أو هذا حلال، أو هذا واجب، أو هذا مستحب بدون دليل، فإن هذا من التقدم بين يدي الله ورسوله، وعلى من قال قولاً وتبين له أنه أخطأ فيه أن يرجع إلى الحق حتى لو شاع القول بين الناس وانتشر وعمِلَ به من عمل من الناس، فالواجب عليه أن يرجع وأن يُعلن رجوعه أيضاً، كما أعلن مخالفته التي قد يكون معذوراً فيها إذا كانت صادرة عن اجتهاد، فالواجب الرجوع إلى الحق، فإن تمادى الإنسان في مخالفة الحق فقد تقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿وَأَقْوُوا اللَّهَ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن التقدم بين يدي الله ورسوله مخالف للتقوى، لكن نص عليه وقدمه لأهميته، ومعنى ﴿وَأَقْوُوا اللَّهَ﴾ أي اتخذوا وقاية من عذاب الله - عز وجل - وهذا لا يتحقق إلا إذا قام الإنسان بفعل الأوامر وترك النواهي، بفعل الأوامر تقرُّباً إلى الله تعالى، ومحبة لثوابه، وترك النواهي خوفاً من عذاب الله - عز وجل -، ومن الناس من إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، وتصاعد في نفسه وعز في نفسه، وأوغل في

(١) أخرجه مسلم كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٨/١٧١٨).

الإثم، وانتفخت أوداجه، وقال: أمثلي يُقال له: اتق الله! وما علم المسكين أن الله خاطب من هو أشرف منه ومن هو أتقى عباد الله لله، فأمره بالتقوى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِغِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾. وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾. ومن الذي لا يستحق أن يُؤمر بتقوى الله؟ فكل واحد منا يستحق أن يؤمر بتقوى الله - عز وجل - والواجب أنه إذا قيل له: اتق الله. أن يزداد خوفاً من الله، وأن يراجع نفسه، وأن ينظر ماذا أمر به، إنه لم يؤمر أن يتقي فلاناً وفلاناً، إنما أمر أن يتقي الله عز وجل، وإذا فسرنا التقوى بأنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أو امره، تقرباً إليه ومحبة لثوابه، وترك نواهيه خوفاً من عقابه، فإن أي إنسان يترك واجباً فإنه لم يتق الله، وقد نقص من تقواه بقدر ما حصل منه من المخالفة، فالتقوى مخالفتها تختلف، فقد تكون مخالفتها كفراً، وقد تكون دون ذلك، فترك الصلاة مثلاً ترتفع به التقوى نهائياً؛ لأن تارك الصلاة كافر، كما دلَّ على ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، حتى إن بعض العلماء حكى إجماع الصحابة على أن تارك الصلاة كافر كفوفاً مخرجاً عن الملة، ومنهم التابعي المشهور عبدالله بن شقيق - رحمه الله - حيث قال: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) (١). وكذلك نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه، ولم يصح عن أي

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة (رقم ٢٦٢٢).

صحابي أنه قال عن تارك الصلاة: إن تارك الصلاة في الجنة، أو إنه مؤمن، أو ما أشبه ذلك، والزاني لم يتق الله؛ لأنه زنا فخالف أمر الله وعصاه، والسارق لم يتق الله، وشارب الخمر لم يتق الله، والعاق لوالديه لم يتق الله، والقاطع لرحمه لم يتق الله، والأمثلة على هذا كثيرة، فقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ كلمة عامة شاملة تشمل كل الشريعة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة تحذير لنا أن نقع فيما نهانا عنه من التقدّم بين يدي الله ورسوله، أو أن نخالف ما أمر به من تقواه ﴿سَمِيعٌ﴾ أي سميع لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ أي عليم بما تقولون وما تفعلون؛ لأن العلم أشمل وأعم، إذ إن السمع يتعلق بالمسموعات، والعلم يتعلق بالمعلومات، والله تعالى محيط بكل شيء علماً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول العلماء - رحمهم الله -: إن السمع الذي اتصف به ربنا - عز وجل - ينقسم إلى قسمين: سمع إدراك وسمع إجابة، فسمع الإدراك معناه أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظهر، حتى إنه - عز وجل - يقول لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ . قالت عائشة - رضي الله عنها -: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في الحجرة - أي حجرة النبي ﷺ - والمرأة تجادله وهو يحاورها وإنه ليخفي عليّ بعض حديثها) (١) . والله

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٩/٨ - ٧٠) إلى سعيد بن منصور والبخاري تعليقاً وعبد بن حميد والنسائي وابن ماجه، وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه . وأخرج البخاري الجزء الأول من قولها في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ . والبيهقي في سننه الكبرى (٣٨٢/٧) .

- عز وجل - أخبر بأنه سمع كل ما جرى بين هذه المرأة وبين رسول الله ﷺ، فهذا سمع إدراك، ثم إن سمع الإدراك قد يُراد به بيان الإحاطة والشمول، وقد يراد به التهديد، وقد يُراد به التأييد، فهذه ثلاثة أنواع.

الأول: يراد به بيان الإحاطة والشمول مثل هذه الآية.

الثاني: يُراد به التهديد مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾. وانظر كيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ حين وصفوا الله تعالى بالنقص، قبل أن يقول: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ مما يدل على أن وصف الله بالنقص أعظم من قتل الأنبياء.

الثالث: سمع يُراد به التأييد، ومنه قوله - تبارك وتعالى - لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾﴾، فالمراد بالسمع هنا التأييد يعني: أسمعك وأؤيدك، يعني أسمع ما تقولان وما يُقال لكما.

أما سمع الإجابة فمعناه: أن الله يستجيب لمن دعاه، ومنه قول إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾﴾. أي مجيب الدعاء، ومنه قول المصلي: (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده فأثابه، ولا أدري أنحن ندرك معنى ما نقوله في صلاتنا أو أننا نقوله تعبدًا ولا ندري ما المعنى؟! عندما نقول: الله أكبر، تكبيرة الإحرام يعني أن الله أكبر من كل شيء - عز وجل - ولا نحيط بذلك؛ لأنه أعظم من أن تحيط به عقولنا، وعندما نقول: سمع الله

لمن حمده. يعني استجاب الله لمن حمده، وليس المعنى أنه يسمعه فقط، لأن الله يسمع من حمده ومن لا يحمده إذا تكلم، لكن المراد أنه يستجيب لمن حمده بالثواب، فهذا السمع يقتضي الاستجابة لمن دعاه.

أما قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ (١) فالمراد أنه ذو علم واسع، قال الله تعالى: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢). فعندما تؤمن بأن الله سميع، وأن الله عليم، هل يمكن وأنت في عقلك الراشد أن تقول ما لا يرضيه؟ لا، لأنه يسمع، فلا ينبغي لك أن تُسمع الله ما لا يرضاه منك، أسمعهُ ما يحبه ويرضاه إذا كنت مؤمناً حقاً بأن الله سميع، وأعتقد لو أن أباك نهاك عن قول من الأقوال فهل تتجرأ أن تسمعه ما لا يرضاه أو أن تسمعه ما نهاك عنه؟ فالله أعظم وأجلّ، فاحذر أن تسمع الله ما لا يرضاه منك، وإذا آمنت بأنه بكل شيء عليم وهذا أعم من السمع؛ لأنه يشمل القول والفعل وحديث النفس حتى ما توسوس به نفسك يعلمه - عز وجل - إذا علمت ذلك هل يمكن أن تفعل شيئاً لا يرضيه؟ لا، لأنه ليس المقصود من إخبار الله لنا بأنه عليم بكل شيء، أن نعلم هذا وأن نعتقه فقط. بل المقصود هذا، والمقصود شيء آخر، وهو الثمرة والنتيجة التي تترتب على أنه بكل شيء عليم، فإذا علمنا بأنه بكل شيء عليم فهل نقول بما لا يرضى؟ لا، لأنه سوف يعلمه، وإذا علمنا بأنه على كل شيء عليم هل نعتقد ما لا يرضى؟ لا، لأننا نعلم أنه يعلم ما في قلوبنا، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (١٣). وقال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ، يحول بينك وبين قلبك ، فيجب علينا إذا مر بنا اسم من أسماء الله تعالى ، أو صفة من صفات الله أن نؤمن بهذا الاسم ، وهذه الصفة ، وأن نقوم بما هو الثمرة من الإيمان بهذا الاسم ، أو الصفة . وما تضمنته الآية الكريمة من أدب عظيم وجه الله تعالى عباده إليه . وهذا هو الأدب الأول .

أما الأدب الثاني ففي قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ، الآية الأولى فيها النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في أي شيء ، سواء من الأقوال أو الأفعال أو غيرها ، أما هذه الآية فهي في رفع الصوت وإن لم يكن هناك تقدم في الأحكام من تحليل أو تحريم أو إيجاب ، يقول الله - عز وجل - : ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ فإذا خاطبك النبي ﷺ بصوت فاخفض صوتك عن صوته ، وإذا رفع صوته فارفع صوتك لكن لا بد أن يكون دون صوت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولهذا قال : ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ .

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني لا تنادونه بصوت مرتفع ، كما ينادي بعضكم بعضاً ، بل يكون جهراً بأدب وتشريف وتعظيم ، يليق به صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهذا كقوله : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ . يعني إذا دعاكم لشيء فلا تجعلوا دعاءه كدعاء بعضكم لبعض ، إن شئتم أجبتم وإن شئتم فلا تجيبوا ، بل يجب عليكم

الإجابة، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وهنا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كذلك أيضاً لا تنادونه بما تتنادون به، فلا تقولون: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وما أشبه ذلك. ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يعني كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، ففي هذا دليل على أن الذي يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، أو يجهر له بالقول كجهره لبعض الناس، قد يحبط عمله من حيث لا يشعر؛ لأن هذا قد يجعل في قلب المرء استهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستهانة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ردة عن الإسلام توجب حبوط العمل، ولما نزلت هذه الآية كان ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه - جهوري الصوت، وكان من خطباء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما نزلت هذه الآية تغيب في بيته وصار لا يحضر مجالس النبي ﷺ، فافتقده الرسول ﷺ وسأل عنه فأخبروه أنه في بيته منذ نزلت الآية، فأرسل إليه رسولا يسأله، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

وإنه قد حبط عمله، وإنه من أهل النار، فدعاه الرسول ﷺ فحضر، وأخبره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة، وقال: «أما ترضى أن

تعيش حميداً، وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟»^(١) قال: بلى
رضيت، فقتل - رضي الله عنه - شهيداً في وقعة اليمامة، وعاش
حميداً، وسيدخل الجنة بشهادة الرسول - عليه الصلاة والسلام -
ولذلك كان ثابت - رضي الله عنه - ممن يُشهد له بأنه من أهل الجنة
بعينه؛ لأن كل إنسان يشهد له النبي ﷺ بأنه في الجنة فهو في
الجنة، وكل إنسان يشهد له بأنه في النار فهو في النار، وأما من لم
يشهد له الرسول ﷺ فنشهد له بالعموم، فنقول: كل مؤمن في
الجنة، وكل كافر في النار، ولا نشهد لشخص معين بأنه من أهل
النار، أو من أهل الجنة إلا من شهد له الله تعالى ورسوله ﷺ. ففي
هذه الآية الكريمة بيان تعظيم الرسول ﷺ، وأنه لا يجوز للإنسان
أن يجهر له بالقول كجهره لسائر الناس، وأنه لا يجوز له أن يرفع
صوته على صوت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولما نزلت هذه
الآية تأدب الصحابة - رضي الله عنهم - بذلك حتى كان بعضهم
يكلمه مسارّة ولا يفهم الرسول ﷺ ما يقول من إسراره، حتى
يستثبته مرة أخرى، وفي هذه الآية دليل على أن كل من استهان
بأمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - فإن عمله حابط؛ لأن
الاستهانة بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ردة، والاستهزاء به
ردة كما قال الله تعالى في المنافقين الذين كانوا يستهزئون برسول
الله ﷺ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾
وكانوا يقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون الرسول ﷺ

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٧/٣) والحاكم في المستدرک (٢٣٤٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وأصل القصة في صحيح مسلم.

وأصحابه - أرغب بطوناً - يعني أوسع - ولا أجبن عند اللقاء، ولا أكذب ألسناً، فأنزل الله هذه الآية، ولما سألهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، يعني نتكلم بكلام لا نريده، ولكن لنقطع به عنا عناء الطريق، فأنزل الله هذه الآية. ﴿قُلْ أَيُّ اللَّهِ وَعَآيِنُهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٥) لا تَعْتَدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ. ولهذا كان الصحيح أن من سب الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان كافراً مرتدّاً، فإن تاب قبلنا توبته لكننا لا نرفع عنه القتل، بل نقتله أخذاً بحق رسول الله ﷺ، وإذا قتلناه بعد توبته النصوص الصادقة صلينا عليه كسائر المسلمين الذين يتوبون من الكفر أو من المعاصي.

ثم أثنى الله تعالى على الذين يعضون أصواتهم عند الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) لما نهى عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، أثنى على الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله، أي يخفضونها ويتكلمون بأدب، فلا إزعاج ولا صخب، ولا رفع صوت، لكن يتكلمون بأدب وغيظ، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أعاد الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ تعظيماً لشأنهم ورفعاً لمنزلتهم، لأن ﴿أُولَئِكَ﴾ من أسماء الإشارة الدال على البعد، وذلك لعلو منزلتهم، فأتى باسم الإشارة بياناً لرفعة منزلتهم وعلوها.

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ قال العلماء: معناها أخلصها

للتقوى، فكانت قلوبهم مملوءة بتقوى الله - عز وجل - ولهذا تأدّبوا بأداب الله تعالى التي وجه لها فغضوا أصواتهم عند الرسول ﷺ، فأخبر عن ثوابهم: ﴿ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر عظيم على أعمالهم الصالحة، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الصلاح صلاح القلب، لقوله: ﴿ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾. وكما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الصحيح: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره الذي هو محل القلب ثلاث مرات: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»^(١) ولا شك أن التقوى تقوى القلب، أما تقوى الجوارح وهي إصلاح ظاهر العمل، فهذا يقع حتى من المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لكن الكلام على تقوى القلب التي هي بها الصلاح، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك. وبعض الناس يفعل المعاصي كإسبال الثوب مثلاً، أو حلق اللحية، أو شرب الدخان، وتنهائه وتخوفه من عقاب الله، فيقول: التقوى هاهنا، كأنه يزكي نفسه، وهو قائم بمعصية الله، فنقول له بكل سهولة: لو كان ما هنا متقياً لكانت الجوارح متقية؛ لأن النبي ﷺ يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»^(٢).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).